أ.د العلمي لراوي

محاضرات مطولة في النقد الأدبي القديم

السنة الأولى. السداسي الثاني

المجموعة الثانية الأفواج: 8،7،6،5

أ.د العلمي لراوي 2022/03/04

1- النقد الانطباعي مفهومه ومجالاته ونماذج من نصوصه في:

أ. الحجاز
ب. في الشام والعراق

2- مفهوم الشعر عن النقاد المشارقة والمغاربة

- قضية الانتحال عند النقاد
- قضية لفحولة عند النقاد
- قضية اللفظ والمعنى عند ابن قتيبة
- قضية الصدق

ملاحظة: النماذج النصية يرجى العودة الى المصنفات الاتية

1. الشعر والشعراء - عبد الله ابن مسلم بن قتيبة.
2. طبقات فحول الشعراء - محمد بن سلام الجمحي.
3. الموشح - محمد بن عمران بن موسى المرزباني
4. دلائل الاعجاز- عبد القاهر الجرجاني
5. البديع - عبد الله ابن المعتز.
6. فحولة الشعراء - الأصمعي.
7. منهاج البلغاء سراج الأدباء - حازم القرطجني.
8. العمدة في صناعة الشعر ونقده - ابن رشيق المسيلي
9. الممتع - عبد الكريم النهشلي.

أ.د العلمي لراوي

مفهوم الشعر عن النقاد المشارقة والمغاربة المحور الثاني

لقد جعل ابن سلام الجمحي موضوع النقد هو التفاضل بين الشعراء ، وكان ذلك امتدادًا طبيعيًا للأحكام النقدية التي حفل بها القرنان الأول والثاني ، ومما يؤكد سطوة الفكر النقدي للقرنين على رؤية ابن سلام النقدية الاعتماد الكامل في قضية التفاضل بين الشعراء على الآراء المنتشرة لكبار علماء اللغة والنحو والرواة .

وقد جعل هذا التفاضل بين الشعراء يقوم على معايير علمية ـ الكثرة ـ وتعدد الأغراض ـ والجودة ، وهذه المقاييس لم تؤهل ابن سلام إلى بحث جوهر العمل الأدبي ، وكل ما فعله هو التصنيف الزمني للشعراء شعراء جاهليين ـ واسلاميين ـ شعراء الرثاء ـ شعراء القرى ـ شعراء اليهود ، هذا العمل جعل ابن سلام يندرج في الاطار التاريخي للنقد الأدبي ، وإذا كان هذا شأن نقده التطبيقي ، فإن لأرائه النظرية المتمثلة في تخليص النقد من الطابع التأثري والدعوة إلى الموضوعية العلمية دورًا مهمًا في بلورة الرؤية النقدية الصحيحة ومن هنا جاءت محاولة ابن قتيبة في كتابه ـ الشعر والشعراء ـ كثر عمقًا وأكثر بعدًا في الممارسة النقدية . إذ استند إلى النظرة الموضوعية لابن سلام ونقلها من ميدان التفاضل بين الشعراء إلى ميدان التفاضل بين الأشعار ، وبهذه النزعة الموضوعية

(*) أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الكوفي مولده بها ، وإنما سمي الدينوري لأنه كان قاضي الدينور ، وكان بن قتيبة يغلو في البصريين إلاّ أنه خلط المذهبين ، وحكى في كتبه عن الكوفيين ، وكان صادقًا في ما يرويه ، عالمًا باللغة والنحو ، وعريب القرآن ومعانيه ، والشعر والفقه كثير التصنيف ، وكتبه بالجبل مرغوب فيها ، وكان مولده في مستهل رجب سنة ثلاث عشرة ومائتين هـ ، وتوفي سنة سبعين ومائتين هـ ، وله من الكتب 1 – كتاب معاني الشعر الكبير 2 – عيون الشعر 3 – عيون الأخبار 4 – القفية 5 – الحكاية والمحكي 6 – أدب الكاتب 7 – الشعر والشعراء 8 – الخيل ... بلغ عدد كتبه حوالي 35 كتابًا ، الفهرست ابن اسحاق النديم ص : 347 ـ 348ـ 349 ـ 350 ـ 351 . وتوجد ترجمته الكاملة ومجموع من تراجم له في كتاب الشعر والشعراء ج 1 ص : 49 ـ 50 ـ 51 ـ 52 .

(**) مدرس النقد العربي القديم بمعهد الآداب واللغة العربية ـ جامعة قسنطينة ـ الجزائر .

التي ابتدأها ابن سلام والتي لم يستفد منها في مجال الإبداع الأدبي قد تفطن ابن قتيبة إلى أهميتها فطبقها على الشعر وهو صلب موضوع النقد . اعتمد ابن قتيبة في النظر إلى الشعر على أسس ومعايير ذات صلة حميمة بالشعر وربما تكون أقرب معيار إلى تمييز جيد الشعر من رديئه نلتقي به حتى الآن (أي إلى غاية عصر ابن قتيبة) .

ضمّن مقدمة كتابه الشعر والشعراء هذه المعايير ، إذ نجد في المقدمة تركيزًا شديدا للقواعد النقدية ، بينما حفل متن الكتاب بالأشعار المنتقاة وأخبار

الشعراء وأقوال العلماء فيهم " وليس من المبالغة أن نقول إن لمقدمة كتاب الشعر والشعر قمة تكاد تعدل قيمة الكتاب كلّه إن لم نقل تفوقها " (1) . وهذا لما اتسمت من تنظير في النقد ، وحسم في بعض القضايا الأدبية التي كانت مجال صراع بين العلماء وبين الشعراء فهي أي المقدمة : " بيان بموقفه النقدي عامة ودستور مستقل بمواده وأحكامه ، بينما يجيئ الكتاب دليلا موجزا ليستعمله المتأدبون من طبقة الكتاب كي يتعرفوا إلى أهم الشعراء القدماء والمحدثين ويستظهروا الجيد من أشعارهم " (2) .

وقبل أن نورد القواعد النقدية لتي اعتمدها ابن قتيبة في تفضيل شعر ما وتمييز جيده من رديئه ، يهمنا أن نسجل موقفين هامين له :

أولهما : استبعاد عامل لزمن :

يقول : " ولم أسلك ، فيما ذكرته من شعر كل شاعر مختارا له سبيل من قلد ، أو استحسن باستحسان غيره ، ولا نظرت إلى المتقدم منهم بعين الجلالة لتقدمه ، وإلى المتأخر منهم بعين الإحتقار لتأخره ، بل نظرت بعين العدل على الفريقين ، وأعطيت كلا حظه ووفرت عليه حقه (3) .

أهمل ابن قتيبة عامل الزمن المتمثل في القدم والحداثة الذي كان أساس تصنيف للشعراء قبله ، ور ى إنما النظر يمتد إلى الشعر نفسه فيقبل على دراسته بصرف النظر عن صاحبه سواء أكان قديما أو حديثا فذلك لايؤثر على شعره ، وجاء موقفه هذا نتيجة لتعصب علماء عصره وميلهم إلى تفضيل القديم " فإني رأيت من علمائنا من يستجيد الشعر السخيف لتقدم قائله ويضعه في متخيره ، ويرذل الشعر الرصين ولا عيب عنده إلا أنه قيل في زمانه أو رأى قائله . ولم يقصر اللّه العلم والشعر والبلاغة على زمن دون زمن ولا خص به قوما دون قوم ، بل جعل ذلك مشتركا مقسوما بين عباده في كل دهر ... فكل من أتى بحسن من قول و فعل ذكرناه له وأثبنا به عليه ولم يضعه عندنا تأخر قائله أو فاعله ولا حداثة سنه . كما أن الردئ إذا ورد علينا للمتقدم أو الشريف لم يرفعه عندنا شرف صاحبه ولا تقدمه (4) .

القصد من هذا الحديث هو الغاء التعصب الذي استبد ببعض العلماء فاتخذوا من عامل الزمن معيارا لتقديم الشاعر القديم والغض من قيمة الشاعر المحدث لا لشيئ إلا لكونهم رأوا هذا الشاعر أو عاش معهم ، وبهذا ابتعدوا عن النظر في الشعر وجودته أو رداءته ، ولهذا أنكر على العلماء تمسكهم بهذا العامل الزمني، لما رأى فيه من إجحاف وظلم في حق الشعر والشعراء ، وأحل محله عامل الجودة في الشعر الذي هو المعول عليه في الحكم .

فهذا موقف من ابن قتيبة يبدو عليه الحياد ، في الحكم بين الشعر القديم والشعر الحديث الذي كثر حوله لنزاع والصراع ، وكل فريق يدعى السبق والريادة معللا ذلك بعوامل لاتمت بصلة الشعر ، فجاء ابن قتيبة وحكم بين الفريقين بالعدل بوساطة هذا المعيار وبذلك انتصر للمحدثين بصمهم إلى القدماء والحكم عليهم بالنظر إلى شعرهم . ومرد هذه النزعة الحيادية والتحررة " هو ثقافة ابن قتيبة المتنوعة ، وبيئته في بغداد واشتغاله بالقضاء . وقد وظهرت روح القضاء في كتبه ، فكان من شواهدها اعتداله في مذهبه النحوى بين أهل البصرة والكوفة ، واعتداله كذلك في مذهبه الديني بين المعتزلة والمتكلمين و هل السنة ، كذلك كان ابن قتيبة معتدلا في اتجاهه الأدبي ، فحاول التوسط بين الإتجاهين المتعارضين في عصره ، مذهب القدماء والمحدثين " (5) .

لموقف الثاني : الغاء عامل الكثرة

المقصود بالكثرة هو كثرّة لمروى عن الشاعر ، وكأنه يشير هنا إلى عامل الكثرة الذي جعله ابن سلام معيارا مهما في تقديم الشاعر ، فيرى ابن قتيبة أن كثرة الشعر لاتنهض دليلا على قوة الشاعرية ، " ولا أحسب أحدا من أهل التمييز والنظر ، نظر بعين العدل وترك طريق التقليد ، يستطيع أن يقدم أحدا من المتقدمين المكثرين على أحد إلا بأن يرى الجيد في شعره أكثر من الجيد في شعر غيره " (6) .

وبهذا رفض معايير ابن سلام وهي القدم والحداثة ، والكثرة ، ورأى أن هذه المعايير لاتستطيع أن تكشف حقيقة الشعر وإنما تقفز إلى عوامل خارجية وتحكم عليه من خلالها ، فتظلم بذلك الشعر والشاعر ، واستبدل بذلك نظرة موضوعية جديدة لاتأخذ في اعتبارها إلا الشعر وما يتضمنه من قيم جمالية وعناصر فنية ، وكأن ابن قتيبة بهذ المقياس الجديد يدافع عن أبى نواس وبشار بن برد وغيرهما من الشعراء المحدثين الذين ظلموا من طرف النقاد ولم يعتدوا بشعرهم لا لشيئ إلا لكونهم يعيشون مع هؤلاء النقاد .

وقد تعرض الدكتور محمد مندور في كتابه " النقد المنهجي عند العرب " إلى منهج ابن قتيبة النقدي .

وبعد أن أشاد محمد مندور باستقلالية رأى ابن قتيبة وعدم خضوعه لتقاليد العرب الأدبية التي خضع لها ابن سلام ، عاب عليه قصر نظرته فقال : " وهذه النظرة المجردة إن صحت أمام العقل ، فهي لا تصح أمام الواقع كما يبصرنا به تاريخ الأدب العربي ، وإنما كانت تصح لو أن الشعر العربي استطاع أن يفلت من تأثير الشعر القديم ، ولو أن نزعة ابن هاني ومدرسته استطاعت أن تغلب فتنجو بالشعر عن التقليد ليظل حيا انسانيا بعيدا عن الصنعة والتجويد الفنى يقتصر

عليهما جيده ، ويسقط الباقي في التصنع المعيب الفاسد ، فأما ، وقد أنتصر مذهب القدماء فمن الواضح لكل ذي بصر بالشعر أن قديم الشعر العربي أعني الجاهلي والأموي ، خير من الشعر العباسي وما تلاه إلى يومنا هذا (7) .

إنّ جملة ما سعى إليه ابن قتيبة هو إبعاد عوامل القدم والحداثة والكثرة من ميدان العمل النقدي لأن ذلك يؤدي إلى الحكم للعصر على حساب الشعر والإقتصار على الجودة فقد ، ولم يهدف بهذه النظرة إلى ما ذهب إليه مندور من كون الشعر الجاهلي والموي يفضل الشعر الذي أنتج بعده ، فهذه قضية أخرى تحتاج إلى قدر كبير من البحث والإستقراء كما أشار إلى ذلك زغلوم سلام " فلا يصح في منهج العلم أن يقال إن الشعر القديم جملة ، جاهليًا وأمويًا خير من الشعر الحديث جملة أو من الشعر العباسي كله ، ثم أي أساس يقوم عليه الحكم ؟ من وجهة نظر الشعر باعتباره فنًا إنسانيًا يعبر عن المشاعر الإنسانية أو من وجهة نظر اللغويين والتقليديين الذين يرون الشعر رصانة وجزالة وأساليب سليمة من الانحرافات " (8).

الواقع أن ابن قتيبة لم يشر إلى شيء من هذا وإنما قرّرَ مبدأ علميًا موضوعيًا في الحكم على الشعر فإذا ما تم استعماله عندئذ يحكم بالجودة أو الرداءة على الشعر ، من خلال النص الشعري وليس وفق معطيات خارجية . وبهذا يكون ابن قتيبة قد وسع من مجال النقد وارتقى إلى مجال النظرة المجردة التي تقترب من العلم وتبتعد عن الهوى والتحامل ، " وهذا هو المنهج الموضوعي شبه العلمي ولهذا قالوا عنه إنه كان رجلاً مستقل الرأي غير خاضع لتقاليد عصره "(9).

بناء على إهمال العاملين السابقين في انتقاء الأشعار وضع ابن قتيبة معايير وأسسًا نقدية للمفاضلة بين الأشعار .

1 ـ اللفظ والمعنى .

قسم الشعر إلى لفظ ومعنى وجعل الجودة مشتركة بينهما وبناء عليها يتقدم الشعر إذا جاد معناه ولفظه ويتأخر إذا تأخر أحدهما وإذا فسد كلاهما عد الشعر في أدنى مراتب الجودة . يقول تدبرت الشعر فوجدته أربعة أضرب (10).

أ ـ ضرب حسن لفظة وجاد معناه ، كقول القائل في بعض بني أمية:

في كفه خيزران ريحه عبق ❁ من كف أروع في عرنينه شمم
يغضي حياء ويغضى من مهابته ❁ فما يكلم الا حين يبتسم
لم يقل في الهيبة شيء أحسن منه .

وكقول أوس بن حجر :

أيتها النفس اجملي جزعا ❁ إن الذي تحذرين قد وقعا

لم يبتدئ أحد مرثية بأحسن من هذا .

وكقول أبي ذؤيب :

والنفس راغبة إذا رغبتها ❁ وإذا ترد إلى قليل تقنع

وكقول حميد بن ثور :

أرى بصري قد رابني بعد صحة ❁ وحسبك داء أن تصح وتسلما

ب – وضرب منه حسن لفظه وحلا ، فاذا أنت فتشته لم تجد هناك فائدة في المعنى . كقول القائل :

ولما قضينا من منى كل حاجة ❁ ومسح بالأركان من هو ماسح

وشدت على حدب المهارى رحالنا ❁ ولا ينظر الغادى الذي هو رائح

أخذنا بأطراف الأحاديث بيننا ❁ وسالت بأعناق المطي الأباطح

جـ – وضرب منه جاد معناه وقصرت ألفاظه منه .

كقول لبد بن ربيعة :

ما عتب المرء الكريم كنفسه ❁ والمرء يصلحه الجليس الصالح

وكقول النابغة للنعمان :

خطا طيف حجن في حبال متينة ❁ تمد بها أيد إليك نوازع

د – وضرب منه تأخر معناه وتأخر لفظه .

كقول الأعشى في إمرأة :

وفوها كأقاحي ❁ غذاه دائم الهطل

كما شيب براح با ❁ رد من عسا النحل

أرجع الجودة التي على أساسها يختار الشعر إلى اللفظ والمعنى ، وجعلها مشتركة بينهما فإذا حصل ذلك أختير الشعر وقدم ، وبهذا قضى ابن قتيبة على الأنحياز الذي شاع في وقته إلى الألفاظ كما فعل ذلك الجاحظ إذ جعل المعاني في متناول الجميع ورأى أن العبرة في الألفاظ .

بعد أن حسم القول في موضوع اللفظ والمعنى بارجاع الجودة إليهما معًا قدم لنا الحالات التي قد تطرأ على الشعر فيتقدم أو يتأخر بموجبها

وعـزا ذلك إلـى الأساسيـن " اللفـظ والمعنـى " فقد يتقـدم اللفـظ علـى المعنـى أو المعنى على اللفظ أو يتأخـرا معـا ، وقـدم عـدة أمثلـة علـى ذلـك منهـا مـا يقـوم شاهـدا وفيـا علـى مقصـده ومنهـا مـا يتخلـف عـن ذلـك .

قد يكـون هـذا الموقـف من ابن قتيبـة مقبـولا لأنـه يتماشـى والـروح العلمية التي سار فيها بالنقد وهي ضـرورة وجـود قاعـدة ينطلـق منهـا فـي الإنتقـاء .

ولكـن إذا مـا أردنـا أن نتحسس جمـال الشعر من خـلال هذه الثنائيـة فإننـا لا نستطيع لأنها تقف بنا عند السطح ولا تبحث مواطن اشعال الجمـال ، والـذي يؤكـد هذا مقصده من اللفظ والمعنى .

فالمعنى عنده لايخرج من تجربـة إنسانيـة معيشـة ، أو حكمـة أو عظـة أخلاقيـة وهـذه من خـلال الأمثلـة التـي قدمهـا عـن المعنـى الجيـد فـي الضـرب الأول والثالث أمـا مـا خـرج عن هـذا المنحى فإنـه لا يعـده مـن المعانـي الجيـدة ، كأبيـات كثيـر والأعشـى ، أمـا الألفـاظ فإنهـا لا تعنـي عنده إلا الـدلالات علـى الأشيـاء وأن مـا فيهـا من رونـق وجمـال يرجـع إلـى شكلهـا الخارجـي المتمثـل فـي تـلاؤم المخـارج والمطالـع والمقاطـع وهذا يستشـف من حديثـه عن أبيات كثيِّـر فقال : " هذه الألفـاظ كمـا تـرى أحسـن شـيء مخـارج ومطالـع ومقاطـع وإن نظـرت إلـى مـا تحتهـا مـن معنـى وجدتـه ولمـا قطعنـا أيـام منـى واستلمنـا الأركـان وعلينـا إبلنـا الأنضـاء ومضـى النـاس لا ينظـر الغـادي الرائـح ابتدأنـا فـي الحديـث وسـارت المطـي فـي الأبطـح (11)".

وليس من شـك أن هذه الأوصـاف التي قدمهـا للألفـاظ تنطبـق علـى مـا تحتويـه من موسيقـى ومـا تتركـه علـى السمع والنفس من ارتيـاح .

فـي ضـوء هذه الثنائيـة وهذا المفهـوم للمعنـى واللفـظ حـاول أن يكشـف الجمال في الشعر ، ولكن هذا الصنيـع كمـا لاحظنـا لـم يؤهلـه إلـى إدراك أسبـاب الجمـال فـي الشعـر " وليس هذا بغريب من رجل يريـد أن يجمـع مـا يقـع الإحتجـاج بـه فـي النحـو ، وفـي كتـاب اللـه عـز وجـل وحديث رسـول اللـه غافـلا عـن قيمـة الشعر الذاتيـة أو منزلهـا المنزلـة الثانيـة ، ونحـن بعـد لا نطالبـه بأن يفطـن إلـى مـا نـراه اليوم فـي حقيقـة الأدب وإن كانـت هـذه الآراء لا تعـد وإيضـاح مـا يحـس بـه الأديـب دون أن يستطيـع تحليله ، ولكننـا نـرى أنـه لـم يكـن يملك حسـا أدبيـا صـادقـا وأنـه كـان يفكـر أكثـر ممـا يتـذوق وأن نقده التقريـري لاغنـاء فيـه " (12) .

2 ـ الإصابـة فـي التشبيـه .

يقول ابـن قتيبـة : وليس كل الشعر يختـار ويحفـظ علـى جـودة اللفـظ والمعنـى ، ولكنـه يختـار ويحفـظ علـى أسبـاب منهـا الإصابـة فـي التشبيـه كقـول القائـل فـي وصـف القمـر :

بـد أن بنـا وابـن لليالـي كأنـه ❁ حسـام جلـت عَنْـه القيـون صقيـل
فمـا زلـت أفنـى كـل يـوم شتاتـه ❁ إلـى أن أتتـك العيس وهـو ضئيـل

إذا أنطلقنا من المفهوم السابق الذي حدده ابن قتيبة ـ للفظ والمعنى ـ فإننا نرى أن هذه الأبيات لا تختار لأنها لا تنطوي على معنى أخلاقي أو فلسفي أو حكمة ـ وبهذا نلاحظ أن المعيار الأول قد تجاوزه إلى معيار الإصابة في التشبيه ولم يحدد القصد من هذا ، ولكن يبدو من خلال البيتين أن الإصابة تكمن في إلتقاء المشبه والمشبه به في صفة أو صفتين شكليتين ، والحقيقة أن مجرد الإلتقاء في الصفات الخارجية لا يخلق الجمال وهذا الضرب من الصناعة البيانية هو نتيجة لمهارة عقيلة ، بينما الفن إحساس ومهارة فنية ، وبهذا يكون هذا المعيار الذي حدده لإنتقاء الأشعار غير مؤهل لفرز الشعر لإهتمامه بالجانب الشكلي فيها وإهماله للأحاسيس والعواطف والإنفعالات التي يتضمنها الشعر .

3 ـ خفة لروى.

يقول ابن قتيبة : وقد يحفظ ويختار على خفة الروى كقول الشاعر :

يَا تَمْلَكُ يا تَمْلي ❁ صبِلِيْني وذَري عذْلي
ذَريني وسِلاحِي ثـ ❁ مَ شُدّي الكفَّ بالغَزْل
ونَبلِي وقْفاها كَعَـ ❁ رَاقِيبِ قطًا طُحْـل
ومِنّي نظْرةُ بَعْدي ❁ ومِنّي نظْرةُ قبْلي
وثوباي جديدان ❁ وأرخي شُرُكَ النَّعْل
وإمَّا مُتُ يا تملي ❁ فكوني حُرَّةً مِثْلي (13)

الروى هو جزء من الموسيقى الخارجية ولا ننكر ما يؤديه من وظيفة نفسية سواء بالنسبة للشاعر في رسم حدود مشاعره واظهار نوعيتها بالنسبة للمستمع ، ولكن لم يشر ابن قتيبة إلى ذلك بل اكتفى بوضع هذا المقياس دون التعليق عليه ، وإظهار أهميته .

4 ـ قلة شعر القائل أو غرابة المعنى أو نبل قائله.

إذا كان ابن قتيبة قد بدا في المعايير السابقة موضوعيا أو قريبًا من الموضوعية فإن هذه المعايير بعيدة كما هو واضح عن الموضوعية التي حاولها في الأسس السابقة ، وتبدو شاذة شذوذا تاما عنها ، ومجرد ذكرها من جانبه يعني عدم وضوح المعيار النقدي عنده ، ويعني كذلك أن أصداء من الماضي مازالت تتردد في نفسه .

فلا يتصور أن تكون قلة الشعر عند شاعر ما في ذاتها معيارًا لإختيار الشعر ، كما أن العكس أيضا – أي كثرة شعر الشاعر– ليس مبررا للإختيار والتقدمة

أما غرابة المعنى فقد مثل لها بقول القائل :

لَيْسَ الفَتَى بفَتَى لا يُسْتَضَاءُ بِه ❁ وَلا يَكُونُ لَهُ في الأرض آثَارُ

وهذا البيت لايفي بالمقصود الذي جعله بن قتيبة أساسا لتقدم الشاعر أما معيار نبل القائل ، فقد استدل عليه بذكر عدد من الأشعار المنسوبة إلى الخلفاء كالمهدي والرشيد والمأمون وعبد الله بن طاهر من ذلك قول المهدي : (15)

تُفَاحَةٌ مِنْ عِنْدِ تُفَاحَةٌ ❁ جَاءَتْ فَمَاذا صَنَعَتْ بالفُؤَادِ

واللّه مَا أدْري أأبْصَرتُهَا ❁ يَقْظَان أمْ أبصرتُها في الرُّقَادِ

وبهذا ابتعد ابن قتيبة عن المعايير الموضوعية في اختيار الأشعار وأجَلّ معايير أخرى كانت قد شاعت قبله وهي الذوق والهوى ، والإستحسان الذاتي الذي حذر منه ، ويقول عنه بدوي طبانة " وبهدا يعرف ابن قتيبة أن هناك عوامل واعتبارات أخرى لحفظ الشعر واختياره غير عامل الإجادة في الألفاظ والمعاني وهذه العوامل التي ذكرها ترجع إلى الذوق وحده ، مادامت قد فقدت العنصر الموضوعي الذي يبنى عليه لإستحسان والحفظ والإختيار في نظره " (16) .

5 ـ هيكل القصيدة.

بعد طول تأمل للشعر العربي حاول ابن قتيبة أن يستنتج بعض خصائص القصيدة العربية والتقاليد التي تتوفر عليها وأورد بعض الدواعي لتمسك الشعراء بهذه التقاليد الفنية فقال ملخصًا هذه التقاليد ..

" وسمعت بعض أهل الأدب يذكر أن مقصد القصيدة إنما ابتدأ فيها بذكر الديار والدمن والآثار ، فبكى وشكا ، وخاطب الربع واستوقف الرفيق ، ليجعل ذلك سببًا لذكر أهلها الظاعنين عنها إذا كان نازلة العمد في الحلول والظعن على خلاف ما عليه نازلة المدر ، لانتقالهم عن ماء إلى ماء ، وانتجاعهم الكلأ ، وتتبعهم مساقط الغيث حيث كان ثم وصل ذلك بالنسيب ، فشكا شدة الوجد وألم الفراق وفرط الصبابة والشوق ، ليُميل نحوه القلوب ويصرف إليه الوجوه وليستدعي به إصغاء الأسماع إليه لأن التشبيب قريب من النفوس لائط بالقلوب لما جعل الله في تركيب لعباد من محبة الغزل وإلف النساء فليس يكاد أحد يخلو من

أن يكون متعلقا منه بسبب وضاربا فيه بسهم حلال أو حرام فإذا علم أنه قد أستوثق من الإصغاء إليه والإستماع له عقب بإيجاب الحقوق ، فرحل في شعره وشكا النصب والسهر وسرى الليل وحر الهجير وإنضاء الراحلة والبعير فإذا علم أنه قد أوجب على صاحبه حق الرجاء وقرر عنده مانالـه من المكاره في المسير بدأ في المديح فبعثه على المكافأة وهزّه للسماح وفضّله على الأشباه ، وصغّر في قدره الجزيل " (17) .

مما يسترعي الإنتباه هذه الإشارة الذكية من ابن قتيبة إلى ظاهرة نفسية لم يتطرق إليها إلاّ عبدالله بن أبي عتيق(18) ـ أثناء تعليقه على شعر عمر بن أبي ربيعة لكنه لم يتوسع فيها ـ ، وتتمثل هذه الظاهرة في عاطفة الحب ، إذ تمكن من تحسسها وأدرك اشتراك العباد فيها دون استثناء وأوضح دورها في سلوك الناس ، ولذلك حاول أن يربط بين هذه العاطفة الإنسانية وما يتحدث عنه الشعراء من عواطف ومشاعر وأحاسيس في أشعارهم ما جعل الناس يستعذبونها ، ويميلون إلى سماع الأشعار التي تدور حول هذه العاطفة فتأكد له أن هذه الجذوة الإنسانية هي نقطة الإلتقاء بين الشاعر والمستمع ، ولذلك يُشدُّ السامع إلى الشعر الذي يلبي حاجته النفسية وهذه حقيقة لا مراء فيها ولا يمكن لأي ناقد أن ينكرها أو يتنكر لها أما فيما يخص تقاليد القصيدة فقد نجح في كشف هذه الظواهر الفنية التي تحتوي عليها القصيدة فلخصها في ثلاث ظواهر كبرى :

1 ـ الظاهرة الأولى تتمثل في افتتاحية القصيدة التي تضم الحديث عن الأطلال والرسوم البالية التي تقتضي من الشاعر أن يتحدث عن أهلها النازحين عنها إلى مضارب أخرى بحثا عن العيش والأمن فيستعيد الشاعر ذكريات هذه القبائل الراحلة ويبعثه الحنين على الشكوى والبكاء على هذه المواطن التي طال فراق الأحبة لها وما عادت كمالف عهدها .

2 ـ والظاهرة الثانية في القصيدة هي الرحلة وما يتخللها من تعب ومشقة كابدها الشاعر أثناء سفره فيتحدث عن نفسه وعن راحلته ويبيّن ما يكابده من ملمات في الليل والنهار وما قابلتهما من حيوانات برية فيقص مشاهد صيدها .

3 ـ الظاهرة الثالثة وهي خاتمة القصيدة المتمثلة في اطراء الممدوح و صفه بشتى الأوصاف التي ترفعه عن جميع الأنداد .

هذا رصد فني دقيق لكل الشعر ، الفنية التي تتضمنها القصيدة وليس لأحد أن يعترض عليه لأن الشعر العربي يقرُّذلك ، لكن الإعتراض الوحيد الذي يمكن أن يبديه المرء حول هذه الشعب الفنية هو مدى فعالية التعليل الذي ذكره ابن قتيبة لوجودها ، إذ جعل كل تقليد مقدمة للدخول إلى تقليد آخر بمعنى أن الشاعر لم يكن ليقف على الأطلال إلاّ ليجعلها معبرًا للدخول إلى حديث الظعن ، ولم يذكر النسيب ويشكو ألم الفراق والوجد إلاّ ليميل نحوه الأسماع ، وهو إذ

يسهب في الحديث عن عاطفة الحب ليس إلاّ ليلبي رغبة السامعين من هذه العاطفة . فإذا حقق لهم هذه الرغبة أوجب عليهم الإستماع لبقية القصيدة فرحل في شعره وشكا النصب والتعب وانضاء الراحلة ، ذكر كل هذه الأتعاب من أجل أن ينال عطف سامعيه ثم دخل بعد ذلك في المديح فتكون كل هذه المشاق والأتعاب باعثًا للممدوح أن يجزل له المكافأة .

هذا التعليل لا يفسر الظاهرة الفنية تفسيرًا حقيقيًا ، بل يفرغ الشعر من أهم عنصر فيه ، وهو العاطفة الصادقة ، فابن قتيبة قد جعل الشاعر يصطنع كل هذه التقاليد اصطناعًا من أجل الحصول على المكافأة ، والسؤال الذي يمكن أن يوجه لابن قتيبة ، إذا أردنا أن نساير تحليله ، هو أنه إذا كان في قصيدة المدح ـ التي يرجو صاحبها الجائزة ويصطنع كل هذه المواقف من أجلها ـ يصلح هذا التعليل ، فما تعليله للقصائد الأخرى ذات الأغراض المختلفة ؟ فهل يبعث الشاعر على القول والمرور على كل هذه الشعب الطمع في نيل الجائزة الكبيرة ؟ لا نظن ذلك لأنه لا توجد جائزة في الهجاء والرثاء ... وبهذا يكون ابن قتيبة قد جعل الشاعر العربي في مختلف العصور ممثلا بارعًا ومحتالا ماهرًا من أجل جلب اهتمام السامعين إليه ، وهو في كل ذلك خال من التعبير الحقيقي عن عواطفه وأحاسيسه ، إن النظرة المنطقية والعلمية هي التي حدت بابن قتيبة إلى إعطاء مثل هذا التفسير لهذه التقاليد وهذا أبعده عن الرؤية الحقيقة للإبداع الأدبي الذي هو مشاعر وعواطف يحسها الأديب فيعبّر عنها ضمن معادلات موضوعية .

وينتقل ابن قتيبة غلى قضية ثانية بعد الرسم التخطيطي لتقاليد القصيدة ، فيطلب من الشعراء أن يوازنوا بين هذه الشعب في القصيدة الواحدة ، فلا يكثروا في تقليد ويقلوا في آخر لأن ذلك يبعث الملل والسأم في نفوس السامعين كما أن الإطالة في غرض معين يهدر طاقة الشاعر اللغوية ويستهلك أفكاره ومعانيه بحيث تاتي بقية التقاليد الأخرى سطحية ، وبذلك تفقد القصيدة تكاملها وانسجامها .

" فالشاعر المجيد من سلك هذه الأساليب ، وعدل بين هذه الأقسام فلم يجعل واحدًا منها أغلب على الشعر ولم يطل فيمل السامعين ولم يقطع وبالنفوس ظمأ إلى المزيد " (19) .

والحقيقة أن هذه النظرة إن صحت أمام العقل فهي لا تصح أمام العواطف والأحاسيس ، إذ بهذا المفهوم يكون ابن قتيبة قد صادر مشاعر الشعراء ، ومارس عليها نوعًا من الحجر ، والشعر هو لغة الأحاسيس والعواطف يمتد بامتداد العواطف ويتوقف بتوقفها ، فليس هناك حدود ترغم الشاعر أوتحد من انفعالاته وقد بلغ الأمر بالخليل بن أحمد أن أجاز للشعراء ما لا يجوز لغيرهم لا شيئ إلاّ لإدراكه أن تدفق المشاعر لاتحدها حدود ولا تقف في وجهها موانع .

وقد ضرب ابن قتيبة بعض الأمثلة لتأكيد فكرته : " فقد كان بعض الرجاز أتى نصر والي خرسان فمدحه بقصيدة ، تشبيبها مائة بيت ومديحها عشرة

أبيات ، فقال نصر : والله ما بقيت كلمة عذبة ولا معنى لطيف إلا وقد شغلته عن مديحي بتشبيبك ، فإن أردت مديحي فاقتصد في النسيب فأتاه فأنشده :

هل تعرف دار الأم الغمر ❁ دع ذا وحبِّر مدحة في نَصْر

فقال نصر : لا ذلك ولا هذا ولكن بين الأمرين (20).

هذا الشاهد الذي قدمه ابن قتيبة لايصلح أن يكون تعليلا للتناسب بين أجزاء القصيدة لأن هذا الموقف متصنع والشاعر يفترض فيه مسبقًا أنه متكلف لأنه عطّل عواطفه وأصبح يلبي غرور الخليفة في سبيل لقاء جائزة ، وكلما تكلف وبالغ كلما زادت قيمة الجائزة أو الهدية ، فقضية التكلف في الشعر ومراعاة مشاعر الممدوح وما يتطلبه مقامه من مراسيم أدبية لا يدخل ضمن الإبداع الحقيقي الذي من ألزم صفاته وأوكدها الصدق العاطفي الذي يقف وراء طول موضوع الشاعر وقصره ، وقد أورد بعض الأقوال المشهورة وهي لاتفسّر اعتدال الأقسام في الطول بقدر ما تفسّر لماذا يختار السامع البيت و البيتين من القصيدة ويعرض عن بقية الأبيات إذ يجد في هذا البيت ما يلبي حاجته كسامع أما الشاعر فله أن يطيل أو يوجز حسب ظروفه النفسية " قيل لعقيل بن علفة ما لك لا تطيل الهجاء ؟ فقال : يكفيك من القلادة ما أحاط بالعنق " ، وقيل لأبي المهوش الأسدي : لم لا تطيل الهجاء ؟ فقال " لم أجد المثل السائر إلا بيتًا واحدًا " (21) ، فالملاحظ أن هذه الأقوال لا علاقة لها بما يريد ابن قتيبة وهو انسجام أقسام القصيدة إذ تتعرض إلى السبب الذي من أجله تشتهر بعض الأبيات فتغدو مضرب الأمثال بين الجمهور لأنها كما قلنا سابقًا ترتبط بظروف حياتهم ، ويمكن أن نسجل هنا أن ابن قتيبة قد نظر إلى الشعر نظرة عقلية وهي صائبة ولا شك أمام المنطق ، ولكنها عندما تعرض على الشعر تتعطل ولا تنفذ إلى مضايقه فتكشف أسراره التي لا يستطيع أن يتحسسها إلا الذوق المرهف والإحساس الرقيق .

وينتقل إلى قضية أخيرة في معرض حديثه عن هيكل القصيدة فيقول : " وليس لمتأخر الشعر ء أن يخرج عن مذهب المتقدمين في هذه الأقسام ، فيقف على منزل عامر ، أو يبكي عن مشيد البنيان ، لأن المتقدمين وقفوا على المنزل الداثر ، والرسم العافي . أو يرحل على حمار أو بغل ويصفهما ، لأن المتقدمين رحلوا على الناقة والبعير . أو يرد على المياه العذاب الجواري لأن المتقدمين وردوا على الأواجن الطوامي ، أو يقطع إلى الممدوح منابت النرجس والآس والورد ، لأن المتقدمين جروا على قطع منابت الشيح والحنوة والعرارة "(22) ، هذه دعوة صريحة لاجتناب التقليد وابتكار الجديد ، جاءت هده الدعوة بعدما لاحظ المعركة القائمة بين أنصار القديم والجديد ، وكما قال في أول كتابه : ولم أسلك فيما ذكرته من شعر كل شاعر مختارًا له سبيل من قلّد ، أو أستحسن

باستحسان غيره ، ولا نظرت إلي المتقدم منهم بعين لجلالة لتقدمه وإلى المتأخر منهم بعين الإحتقار لتأخرّه بل نظرت بعين العدل على الفريقين وأعطيت كلاحظه ووقرت عليه حقه ، فلم يتعصب لفريق ضد فريق ، مثلما كان سائدً في عصره ونظر إلى القضية بعين متمحصة وعقل متزن ، ورأى أن هؤلاء لشعر ء المحدثين الذين يزعمون لأنفسهم أنهم قد جددوا في الشعر وخرجوا عن مذاهب لقدماء ، لم يكن خروجهم عن لجوهر بل كان عن لعرض ، إذ لم يزد لشاعر من هؤلاء أن استبدل محتوى بآخر وحتى هذ المحتوى لم يكن شيئًا مبتكرًا في معظمه ، فالأقسام بقيت هي نفسها الأقسام لتقليدية ، فلم تخل القصيدة من المقدمة والرحلة والأغراض ، التي كانت سائدة في الشعر لقديم ، فدعوة أبي نواس لتجديدية لم تكن تهدف لُبَّ الشعر بل إطاره الخارجي فاستبدل أبو نو س مقدمة لأطلال بمقدّمة الخمرة ، وكما عرفنا سابقًا فالخمرة كانت ضمن لمقدمات لثانوية في القصيدة التقليدية ، ولذلك لا يمكن أن تُوصف دعوة أبي نواس (23) بالجدّة والابتكار حيث يقول :

صفة الطلول بلاغة لقدم ❁ فاجعل صفاتك لابنة لكرم
تصف الطلول على السماع بها ❁ أفذو العيان كأنت في لحكم
وإذا وصفت الشيئ متبعًا ❁ لم تخل من غلط ومن هم

فلم يزد لمجددون ان أستبدلو تقليدًا بآخر وبذلك لم يخرجو من دائرة الإتباع وكان احرى بهم أن يبتكرو ظاهرة فنية خادمة بهم نابعة من واقع حياتهم لجديدة فإن فعلوا ذلك استحق صنيعهم أن يوصف بالجدّة .

" وقد فهم بعض الدارسين أن بن قتيبة يصر على أن يظل هذا الشكل نظامًا صارمًا لكل شاعر جاهليًا كان و إسلاميًا أو محدثًا وأنه حرم على المتأخرين التحلل من ربقة هذ لنظام ، وهذ لوهم منشؤه قول ابن قتيبة ، فالشاعر المجيد من سلك هذه الأساليب وعدل بين هذه الأقسام ، وما رى ابن قتيبة هنا يؤكد شيئًا سوى التناسب ، أما قوله بعد ذلك وليس لمتأخر الشعر ء أن يخرج عن مذهب المتقدمين في هذه الأقسام ... فليس ثمة وضح منه في لدلالة على تحريم التقليد الشكلي المضحك وإحلال مواد الحضارة محل البداوة في لشعر ، ومن ذا الذي ينكر أن استعمال الحصان أو الحمار بدل الجمل وذكر لإجاص والتفاح بدل الشيح والعرار لا يكون تقليدً مستهجنًا مضحكًا ؟ للشاعر أن يجدد بما يناسب عصره دون حكاية قياسية تدل على ضعف الخيال "(24) .

فابن قتيبة لم يحظر على الشعراء لخروج عن مذهب لقدماء وإنما يصف واقع هؤلاء لشعراء وزعمهم الخروج عن مذهب القدماء فيقول نى لهؤلاء أن يخرجوا عن سلوب لقدماء وهم لم يزيدو ن استبدلوا مضمون لأطر الفنية

بمضمون آخر وهذا ليس تجديدًا ولذلك فهو يدعو إلى التجديد ويُلحّ على أن يكون هذا في ابتكار ظواهر فنية لم يسبقوا إليها ولا يكتفى باستبدال المواضيع لأن الموضوع من الطبيعي أن يتغير بتغير الحياة من البداوة إلى الحضارة .

إن محاولة ابن قتيبة قد أضفت على النقد طابع العلمية والموضوعية ، وذلك بتخليص النقد من الأهواء المختلفة التي كانت تسيطر عليه والعناصر الخارجية التي كانت تتحكم فيه كالقلة والكثرة وتعدد الأغراض والقدم والحداثة ، استبدلها بمقاييس أقرب إلى طبيعة التجربة النقدية كالنظر إلى جودة اللفظ والمعنى والإصابة في التشبيه والتكلف الذي هو علامة الاعياء والقول على البداهة الذي هو علامة التمكن من الصناعة الفنية وغيرها من المقاييس التي ذكرها .

وإذا كان قد أخفق في التطبيق على هذه المقاييس في ميدان الإنتاج الشعري فإنّ ذلك راجع إلى عدم وضوح العمل النقدي واختلاط المفاهيم التي لم يستطع ابن قتيبة التخلص منها .

بالرغم من كل ذلك فإنّ هذا الجُهد يعتبر خطوة رائدة تضاف إلى محاولة ابن سلام الجيدة .

المراجع

1 ـ الدكتور محمود الربداوي : المتخير من كتب النقد العربي ـ مؤسسة الرسالة ص 68 .

2 ـ الدكتور إحسان عباس : تاريخ النقد الأدبي ، دار الثقافة بيروت ، ط 3 ، 1981 ، ص 106 .

3 ـ أبو عبدالله بن مسلم بن قتيبة : " الشعر والشعراء " تحقيق وشرح أحمد محمد شاكر ـ دار المعارف مصر جـ 1 ، ص 62 .

4 ـ ابن قتيبة : " الشعر والشعراء " جـ 1 ، ص 62 ـ 63 .

5 ـ الدكتور محمد زغلول سلام : تاريخ النقد الأدبي والبلاغة ، حتى ق 4 هـ ـ دار المعارف بالأسكندرية ، ص 136 ـ 137 .

6 ـ ابن قتيبة : " الشعر والشعراء " جـ 1 ، ص 81 .

7 ـ الدكتور محمد منذور : النقد المنهجي عند العرب ـ دار نهضة مصر ، ص 23 ـ 24 .

8 ـ الدكتور زغلول سلام : تاريخ النقد الأدبي والبلاغة ، ص 140 .

9 ـ الدكتور سعد ظلام : النقد الأدبي ـ مطبعة الأمانة القاهرة، ط1، 1977، ص 67.

10 ـ ابن قتيبة : " الشعر والشعراء " جـ 1 ، ص 64 ـ 65 ـ 67 ـ 68 ـ 69

11 ـ ابن قتيبة : " الشعر والشعراء " جـ 1 ، ص 66 ـ 67 .

12 ـ ابن قتيبة : " الشعر والشعراء " جـ 1 ، ص 34 ـ 35 .

13 ـ ابن قتيبة : " الشعر والشعراء " جـ 1 ، ص 85 .
14 ـ ابن قتيبة : " الشعر والشعراء " جـ 1 ، ص 86 .
15 ـ ابن قتيبة : " الشعر والشعراء " جـ 1 ، ص 87 .
16 ـ الدكتور بدوي طبانة : دراسات في النقد الأدبي العربي ـ دار الثقافة بيروت ط6 ، 1974 ، ص 229 .
17 ـ ابن قتيبة : " الشعر والشعراء " جـ 1 ، ص 75 .
18 ـ الدكتور عبدالعزيز عتيق : تاريخ النقد الأدبي عند العرب ، دار النهضة العربية ، بيروت ـ لبنان ، 1974 ، ص 121 .
19 ـ ابن قتيبة : " الشعر والشعراء " جـ 1 ، ص 75 ـ 76 .
20 ـ ابن قتيبة : " الشعر والشعراء " جـ 1 ، ص 76 .
21 ـ ابن قتيبة : " الشعر والشعراء " جـ 1 ، ص 76 .
22 ـ ابن قتيبة : " الشعر والشعراء " جـ 1 ، ص 76 ـ 77 .
23 ـ الحسن بن رشيق القيرواني : العمدة في صناعة الشعر ونقده ، تحقيق وشرح مفيد محمد قميحة ـ دار الكتب العلمية بيروت ط 1 ، سنة 1983 ، ص 71.
24 ـ الدكتور إحسان عباس : تاريخ النقد عند العرب ، ص 112 ـ 113 .